لم يكن أنور السادات في وارد المشاركة في حرب تحريريّة (أرشيف)

وسيكتفي بالتهريج الحربي والخطاب الحربي حفاظاً على عرشه ـ وقد أبلغ العدوّ بذلك قبل الحرب.

6) الاستعانة بعناصر عسكريّة قياديّة فعّالة بناء على أسس عسكريّة مهنيّة وليس على أساس المحسوبيّة والشلليّة، لكن هذا العنصر لم يكن كاملاً، لأن الشلليّة والمحسوبيّة تعايشتا مع بعض ظواهر المهنيّة. بمعنى آخر ظلّ أنور السادات يتدخّل في أمور إدارة الحرب (نحو الهزيمة) وظلّ مصطفى طلاس الذي لا يصلح إلا في منصب مقدّم برنامج فن وألعاب وتسلية على فضائيّة محتفظاً بنياشينه، وظلّ محتفظاً لسنوات بثاني أعلى منصب في الجيش السوري. السادات مثلاً رفض نصيحة سعد الشاذلي لسحب «الجيش الثالث» قبل حصاره.

7) إظهار العدوّ كما لم يظهر أمام أنظار العرب من قبل: في موقع الذعر والهلع والارتباك والتخبّط.

8) مدّ الجندي العربي والجمهور العربي العريض بمعنويّات كبيرة وإن لم تستخدم الأنظمة العربيّة تلك المعنويّات بعد ذلك.

9) نجح العرب أثناء الحرب في الابتعاد عن مهزلة الإعلام العربي في حرب 1967 وإن كان إعلام السادات بعد المعركة قد استفاض في المبالغة والكذب والانتصاريّة الزائفة.

10) قدّم الجيش العربي نموذجاً من الوحدات القتاليّة المتحرّكة وذات قدرات المبادرة الفعّالة، مع أن هذا العنصر كما أشار كنيث بولاك في كتابه الموسوعي عن الأداء العسكري للجيوش العربيّة، «العرب في الحرب»، كثيراً ما أضعف الأداء العسكري للجيوش العربيّة لأن الجندي لا يتحرّك من دون أمر من الضابط، والضابط لا يتحرّك من دون أمر من الضابط الأعلى رتبة، وهكذا دواليك. أما في قوّات المارينز فهي تعتمد على فكرة أنه لو كان هناك جنديّان فقط في موقع ميداني، فإن واحداً منهما يصبح قائداً تلقائيّاً. وهذا هو المُعتمد في جيش العدوّ.

11) نجحت القوّات العسكريّة العربيّة في صهر بوتقة التعاون بين مختلف القطاعات والأجهزة العسكريّة.

كيف تقيس عنصر النجاح أو الفشل في حرب تشرين؟ هل تقيسه بعدد الأمتار المُحرّرة؟ لو كان الأمر كذلك، فإن النصر لم يكن حليف الجيشين، لا بل إن الجيش السوري خسر المزيد من الأراضي لأنه، وبعد أيّام فقط من الحرب، أصبحت دمشق في مرمى مدفعيّة العدوّ، كما أن الجيش المصري تعرّض لحصار مُكبّل. لم يُحرّر الجيشان أراضيهما المُحتلّة، وهذا هو العنصر الأساسي في الفوز بالمعركة. أم تقيس الأمر بعدد الخسائر وعقد مقارنة بين خسائرنا وخسائرهم؟ لو كان الأمر كذلك، لكانت المقارنة في غير مصلحة العرب. ليس هناك حتى الساعة تعداد تفصيلي دقيق لعدد خسائر الجيشين السوري والمصري في تلك الحرب، ربما لأن كل ما يحيط بحرب تشرين في الإعلام المصري والسوري (والعربي عامّة) يدخل في باب الدعاية وإنهاض المعنويّات على حساب الحقائق والأرقام؟ والخسائر في السلاح والعتاد هي مثلها مثل الخسائر البشريّة. يمكن على الأقل السماح بإجراء دراسات رسميّة في مصر وسوريا وذلك لتقديم صورة واقعيّة عن واقع تلك الحرب، لكن هذا من المستحيلات لأن النظام السوري والنظام المصري الحالي لا يزالان يستخدمان حرب تشرين لأغراض الدعاية السياسيّة. ثم إن قياس النصر والهزيمة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي كان أكثر طموحاً في بداية هذا الصراع، إذ إن الهدف كان تقويض الكيان الصهيوني وتحرير فلسطين. لم تقدّم حرب تشرين أي مساهمة فعليّة ميدانيّة في تحرير فلسطين، ولم يسمح الجيشان بإطلاق عمليّات مقاومة فلسطينيّة لرفد المجهود الحربي. على العكس، ما إن عُقدت اتفاقات وقف النار حتى سارع النظامان إلى فرض رقابة قمعيّة صارمة على تحرّك الفدائيّين (أحنّ إلى زمن تلك المصطلحات). أم نقيس حرب تشرين بمقارنتها بسابقاتها في المواجهات مع العدوّ؟ لكن هذا لا يصلح في تقويم الحروب خصوصاً إذا كانت تدور حول تحرير أرض محتلّة، حتى لو أهملنا مصير فلسطين كما فعلت الأنظمة. لا يكفي أن يتحسّن أداء الجيوش إذا لم تُحرّر الأرض ولم يهزم العدوّ، وخصوصاً إذا كان رابضاً على أرض وطنيّة (فلسطينيّة وسوريّة ومصريّة وأردنيّة آنذاك. أما لبنان، فإنه وفق عقيدة فؤاد شهاب العسكريّة سلّم أراضيه منحة للعدوّ كي يهنأ بها). هل يُقاس الفشل أو النجاح بالقدرة على إرباك العدوّ، مع أن العدوّ عاد واستدرك وحشد قوّات إضافيّة، وعكس الوضع الميداني في جبهتين وبعد يومين أو ثلاثة فقط، وبدعم أميركي غير مسبوق عالميّاً، إذ إن الجسر الجوّي الذي أقامته إدارة نيكسون لعون إسرائيل كان أكبر جسر جويّ حتى تاريخه ـ تفوّق عليه حجماً الجسر الذي أنشأته أميركا في التحضير لحرب الخليج الأولى. يروي ويليام كوانت في كتابه «مسيرة سلام» أن نيكسون قال لمعاونيه في أوّل أسبوع من حرب تشرين: «أعطوهم كل ما لدينا».

> لم تقدم حرب تشرين أي مساهمة فعلية في تحرير فلسطين

> الفريق المحيط بكارتر كان مولعاً بالسخرية من السادات

لكن هناك ما حكم بالفشل على حرب تشرين.

1) لم يكن أنور السادات في وارد المشاركة في حرب تحريريّة: التحريك لا التحرير كان هدفه. والكتاب الذي صدر حديثاً في إسرائيل ليغال كيبنس (1973: «الطريق إلى حرب»)، والمبني على وثائق إسرائيليّة لم تُنشر بعد يشير إلى أن السادات حاول منذ عام 1972 أن يتوصّل إلى استسلام من نسق كامب ديفيد مع العدوّ ومع التسليم بإخراج مصر كليّاً من الصراع العربي ـ الإسرائيلي، لكن قادة العدوّ والإدارة الأميركيّة لم تأخذاه على محمل الجدّ. كانت الحرب محاولة منه للفت أنظار العدوّ إليه. ويروي زبغنيو بريجنسكي، في كتابه «القوة والمبدأ»، أن الفريق المحيط بجيمي كارتر كان مولعاً بالسخرية من السادات وطريقته في الحديث والتهريج حتى في زمن إدارة كارتر.

2) كان للعدوّ الإسرائيلي جواسيس في مواقع وثيقة الصلة بصانعي القرار: أشرف مروان والملك الأردني. ليس من المبالغة القول إن الملك حسين خان ـ بالمعنى القانوني للكلمة ـ الجيشين العربيّين واستحق أقصى عقوبة على فاحشته السياسيّة تلك. كان الحسين هذا يتسقّط أخبار التحضير للمعركة (معتمداً على واحد من جواسيسه في الجيش السوري) كي يوصلها وبسرعة قصوى وبواسطة مروحية الى قوات العدوّ.

3) لم يكن دعم الاتحاد السوفياتي للعرب على مستوى دعم أميركا لإسرائيل. لم يكن ذلك يوماً على أهميّة المساعدة السوفياتيّة في التحضير للحرب، وخصوصاً في أجهزة بناء الجسور لعبور القناة.

4) كان النظامان السوري والمصري يشاركان في التحضير وفي شن الحرب وهما على خصام، ويساور الواحد الشكوك نحو الآخر.

5) كانت مصلحة النظام وبقائه تتفوق على مصلحة المعركة: النظام قبل الأرض في حساباتهما.

6) لم يكن دعم الدول النفطيّة مؤثّراً، لا في الدعم المالي للجيشين ولا في مسرحيّة الحظر النفطي الذي لم يطل، والذي لم يوقف بيع النفط العربي للغرب في السوق الفوريّة. كان بإمكان هذا العامل أن يغيّر من طبيعة المكاسب السياسيّة التي حقّقتها إسرائيل بعد الحرب.

7) لم تكن القيادة العسكريّة للجيشين في منأى عن التدخلات السياسيّة: يكفي أن مصطفى طلاس هو «بطل حرب تشرين» ويكفي أن كل أفلام حرب تشرين المصريّة الرسميّة تظهر السادات ـ كما هتلر في صور القيادة العسكريّة للجيش النازي في الحرب العالميّة الثانية ـ وهو منكبّ على دراسة الخرائط يصدر أوامره، علماً بأن عبد الناصر قرّر بعد تجربة عبد الحكيم عامر المريرة أن يترك أمر بناء القوات المسلحة وقيادتها للمحترفين في الجيش.

8) لم يكن في وارد النظامين المشاركة في حرب عربيّة شاملة لتحرير فلسطين، ولم يُتح لمقاومة الشعب الفلسطيني أن تلعب دور المؤازرة الفعليّة للاستمرار في حرب استنزاف كان بإمكانها أن تجيّش الشعب العربي برمّته.

9) لم يستمرّ زخم العمل العسكري العربي القاهر في اليومين الأوّلين للحرب، ما سمح للعدوّ بدفع قوات الاحتياط وردّ القوّات السوريّة على أعقابها ومحاصرة القوّات المصريّة في سيناء والتي لم يردها السادات أن تتقدّم.

10) وثق السادات (وبدرجة أقلّ النظام السوري) بالإدارة الأميركيّة، ما أدّى إلى تسويات سياسيّة مناسبة للعدوّ.

11) بذل النظامان جهوداً في الحروب العربيّة ـ العربيّة أكثر بكثير مما بذلاه في الحرب ضد العدوّ. و لم يبنِ أيّ من النظامين على مكاسب حرب تشرين، بل اعتبراها آخر الجهاد.

ليست الديموقراطيّة هي الحلّ هنا أيضاً: ليس صحيحاً ما تروّج له أبواق اللغو الديموقراطي الذين يقولون إنّ الهزيمة لحقت بنا لأن أنظمتنا غير ديموقراطيّة. هل نسي هؤلاء أن الجيش الستاليني والجيش الألماني والجيش الفيتنامي حققت انتصارات تاريخيّة من دون ديموقراطيّة؟ النصر له حسابه وله شروطه وله معادلاته. لكن النصر ضد العدوّ الإسرائيلي يتطلّب إعداداً ومجازفات لا تستقيم مع الهوس بالحفاظ على العرش.

قد يكون «نصر» أكتوبر أشدّ ضرراً وإيلاماً من «هزيمة» حزيران. الأول أعطى جرعات مقوية للشرعيّة السياسيّة للنظامين السوري والمصري، كما أنه سمح للنظامين بتطليق الحروب ضد العدوّ بالثلاثة. أما الهزيمة في 1967، فقد شحذت الهمم وأطلقت مقاومة فلسطينيّة عربيّة لم تعمّر طويلاً بفعل مؤامرات الأنظمة ضدّها وقيادة ياسر عرفات البائسة. ولكن كما أن تحويل الهزيمة إلى نصر بات طقساً في السياسة العربيّة المُعاصرة، فإن الأنظمة العربيّة السائدة حوّلت أكبر نصر عربي ضد العدوّ الإسرائيلي في حرب تموز إلى هزيمة. لكن مَن قال إن تبيان الهزيمة من النصر يحتاج إلى قراءة مقال لكاتب في جريدة هذا الأمير السعودي أو ذاك؟

* كاتب عربي (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)